المقتطف

الجزء الثامن من السنة الخامسة عشرة

١ ايار (مايو) سنة ١٨٩١ الموافق ٢٢ رمضان سنة ١٣٠٨

جهاد العلماء

النبذة الرابعة في الصرع والهستيريا والخوريا

افتح قانون ابن سينا واقرأ ما كتبه في امراض الرأس والاعصاب منذ الف سنة تجد انه قد علّلها كلها بالعلل الطبيعيّة ثم وصف لها انواع العلاج بين ادوية وتدبير صحي ولم يحسب انها حادثة من مس الشيطان ولا من فعل الجان ولا من قوة روحيّة غير مدرَكة . واقرأ بعد ذلك كتابًا في فن العلاج لاحد اطباء عصرنا هذا تجد انه يجري على هذه الخطّة عينها فيصف امراض الدماغ والاعصاب وصفًا طبيعيًا ويعلّلها بالعلل الطبيعيّة ويصف لها العلاج الطبيعي غير حاسب انها من مس شيطان ولا من قوة جان . ولكنْ بين هذين العصرين عصر ابن سينا وعصرنا الحاضر ظلمات بعضها فوق بعض ضربت سرادقها على الابصار والبصائر وقبوضًا من الجهل غلّت العقل وجيوشًا من التسلّط ارهقت العلماء ومزّقت شمل ذوي الافهام ولم تزل شوكتها قويّة في بعض البلدان حتّى يومنا هذا . واليك طَرَفًا من تاريخها نضيفه الى ما تقدّم من جهاد العلماء استطرادًا

قد ابنّا في نبذة سابقة ملخص تاريخ الجنون ومعالجة المجانين من حسبانهم منازل نزلها ابليس الرجيم ووجوب معاملتهم بالقسوة ليزدق ابليس منهم او تزهق نفوسهم الى حسبانهم مرضى بامراض عصبيّة كما حسبهم ابن سينا وغيرهُ من المتقدمين ووجوب معالجتهم في البيمارستانات باللطف واللين . الّا ان الشيطان الذي نُلّ عرشهُ من نفوس المجانين بقي في زعم كثيرين متسلطًا على المصابين بالصرع والامراض الهستيريّة ولم يزل هذا الوهم شائعًا في بلدان كثيرة حتّى يومنا هذا فاذا أُصيبت فتاة في هذه البلاد بنوبة هستيريّة يقال ان

شيئًا حلّ عليها . وفي غيرها يقال ان الشيطان مسها او ان قوة اخرى روحيّة حلّت عليها

ذكر الدكتور دافِدسن انهُ في سنة ١٨٦٢ بلغ نزلاء مدينة استاريفو عاصمة مدغسكر ان مرضًا وافدًا انتشر في تلك الجزيرة اذا أُصيب بهِ شخص جعل يرقص الى ان يقع مغمًى عليهِ من التعب او يقضي عليهِ ولم يمضِ شهر من الزمان حتّى بلغ المرض العاصمة فصرتَ ترى فيها فرقًا فرقًا من الراقصين ومع كل فرقة منهم شخص يضرب لهم على الطبل او على آلة أُخرى موسيقيّة وكانت الافكار مضطربة حينئذٍ بسبب ما حدث في البلاد من الانقلاب الديني والسياسي وظهر فيها حزب ضد الاجانب فانحاز هذا الحزب الى الراقصين فكثر جمهورهم وزادوا انتشارًا مع ان اكثرهم من السوقة والعامّة وجمهورهم من الفتيات بين السنة الرابعة عشرة والخامسة والعشرين اما المتنصّرون فكانوا راضين بما حدث في البلاد من الانقلاب وكانوا يعتقدون ان ما اصاب غيرهم انما هو مسٌّ من الشيطان ولذلك لم يصب احد منهم بهِ الاّ نادرًا

وكان المصاب بهذا الداء يشعر اولاً بألم في صدرهِ وتيبُّس في عنقهِ وبعد يومين او ثلاثة يصير يقلق ويضطرب ولاسيما إذا سمع صوت آلة موسيقيّة وحينئذٍ يخرج من بيتهِ مسرعًا ويتبع الراقصين ويشاركهم في الرقص موقّعًا رقصهُ على صوت الآلة الموسيقيّة وتجحظ عيناهُ ويغيب عن الصواب . واكثر الآلات الموسيقيّة من نوع الطبل فيزيد الضاربون عليها سرعةً والراقصون تهيّجًا الى ان يقعوا مصروعين فيأتي ذووهم ويأخذوهم الى بيوتهم فيفيقوا بعد مدة اصحاء وقد زايلهم ما كان بهم وكثيرًا ما يشفون تمامًا

والغالب ان رؤية الراقصين كافية لاتحاد غيرهم معهم واصابتهم بهذا الداء واذا لم يكن معهم طبل ولا آلة اخرى صفقوا بايديهم ووقّعوا حركاتهم على صوت التصفيق وكثيرًا ما كانوا يخرجون الى خارج المدينة ويرقصون بين القبور . وادّعى كثيرون منهم انهم كانوا يرون ارواح الاموات ويخاطبونها او يشعرون كأن جنة ميت معلقة بهم وكانوا يكرهون رؤية البرانيط والخنازير والاكسية السوداء فاذا رأوا برنيطة او خنزيرًا او كساء اسود زاد هيجانهم

وما حدث في هذه الجزيرة البعيدة منذ اقل من ثلاثين سنة تسلّط على اوربا مدة قرون كثيرة ولم يستطع رجال العلم ان يجاهروا بكونهِ من قبيل الادواء العصبيّة لان خدَمة الدين حكموا انهُ داء روحي حادث بفعل الشيطان او بقوة روحيّة فائقة ففي سنة ١٢٧٤ فشا هذا الداء في اوربا واصيب بهِ كثيرات من الفتيات وبعض الصبيان والفتيان وكان المصابون بهِ يرقصون ساعات عديدة الى ان يعيوا ويقعوا على الارض لا حراك بهم . وكان بعضهم يزعم انهُ غائص في بحر من الدماء او انهُ يرى مناظر غريبة لا وجود لها في الخارج وبلغ

عدد المصابين في مدينة كولون خمس مئة نفس في وقت واحد وفي مدينة متس الفًا ومئة نفس وزاد عددهم على ذلك في مدينة ستراسبرج

اما العلاج الذي عولجوا بهِ فالرقي والتقسيم وزيارة الاماكن المقدَّسة ولما لم تجدِ هذه الطرق نفعًا لجأ الناس الى اضطهاد اليهود علاجًا للمصابين بداء الرقص زعمًا منهم ان الله سبحانهُ اغتاظ من شعبهِ لاحتمالهم اليهود اعداءهُ في بلادهم فابتلاهم بهذا الداء فلا دواء لهُ الاَّ النكيل باليهود فهجموا عليهم ونهبوا منازلهم وقتلوا كثيرين منهم وهم يحسبون انهم كالوا لهم بالصاع الذي كالوا بهِ للمماليك وغيرهم من شعوب فلسطين. ولزم الاطباء الصمت في غضون ذلك خيفة ان يصيبهم ما اصاب اليهود

وفي غرة القرن السادس عشر قام الطبيب براسلس وجاهر بان هذا الداء من جملة الادواء العصبيَّة وان سببهُ طبيعيٌّ وعلاجهُ طبيعيٌّ وتلاهُ الطبيب جون وبر سنة ١٥٦١ فجاهر بذلك ايضًا فلقي اشد المقاومة ولم يكد ينجو بحياتهِ. ولكن الحقَّ الذي علَّا بهِ قويَ على بعض العقول في شمالي اوربا فانقادت اليهِ صاغرةً اما في جنوبيها فبقيت الاوهام متسلطةً حتَّى اواخر القرن الماضي ولم تزل منها بقيَّة الى يومنا هذا

هذا اذا نظرنا الى انتشار هذا الداء بنوع عام اما اذا نظرنا اليهِ بنوع خاص فنجد انهُ لم يزايل اوربا منذ العصور الوسطى الى الآن ففي القرن الخامس عشر أُصيبت راهبة في احد اديرة جرمانيا بداء عصبي دفعها الى عض غيرها من الراهبات والحال فشا هذا الداء بين رفيقاتها في الدير الذي كانت فيهِ وامتدَّ من دير الى دير حتَّى انتشر في كل اديرة جرمانيا ووصل منها الى هولندا وقطع جبال الالب الى ايطاليا

وفي اواخر القرن السادس عشر حدث في فرنسا ما ازاح الستار عن هذه الاوهام وكاد يقضي ببطلانها وذلك ان فتاةً اسمها مرتا بروسبر ادَّعت ان الشيطان حلَّ فيها وجالت من مكان الى آخر تطلب الى الناس ان يخرجوهُ منها وبلغ خبرها الملك هنري الرابع ملك فرنسا فاضطرب من هذا الامر وقلقت لهُ خواطر رجالهِ وكان في الحجر اسقف قرأ مقالات متنائي الذي انكر حلول الشيطان في جسم الانسان فاستدعى هذه الفتاة وامر ان يؤتى اليهِ بكتاب التقسيم وكان قد اوصى الخادم ان يأتيهُ بكتاب الشاعر فرجيل بدل كتاب التقسيم ولم يكد يفتح الكتاب ويقرأ منهُ بضعة اسطر حتَّى جعلت الفتاة تشنج وتضطرب كأنَّ الكتاب كتاب تقاسيم فحكم انها خادعة الاَّ ان الرهبان قاوموهُ وادعوا ان الشيطان فعل ذلك خداعًا منهُ ليوهم بانهُ غير حالٍّ فيها وانحاز الشعب اليهم واخذوا الفتاة الى باريس

فهاج البارسيون وماجوا على جاري عادتهم الاّ ان رئيس اساقفة باريس الكردينال غُندي سلمها الى لجنة من نخبة الاطباء فحكمت اللجنة انها مصابة بالمستيريا وبذلك منعوا انتشار داءها

ثم عادت حُجُب الوهم وانسدلت على وجه الحقيقة في القرن السابع عشر فانتشر داء مثل الادواء المتقدمة في آكس سنة ١٦١١ وزعم الناس ان رجلاً اسمهُ غوفريدي هو علة انتشار هذا الداء فقبضوا عليهِ وحرقوهُ وادّعى احد الكهنة انهُ اخرج ستة آلاف وخمس مئة شيطان من شخص واحد . وبعد عشرين سنة انتشر داء المستيريا في دير للراهبات بمدينة لودن في جنوبي فرنسا وكنّ كلهنّ من بنات الاشراف الّذين ليس عندهنّ مهر كافٍ لزواجهنّ فأُصيبت واحدة منهنّ اولاً وامتدّ الداء حتّى عمّ جميع الراهبات فكنّ يتشنجنَ ويصرخنَ ويشتمنَ ويذكرنَ اسم كاهن اسمهُ غراندييه ساكن بقرب الدير وكان لهذا الكاهن خصوم فزعموا انهُ رقى الراهبات حتّى جنّ لانهنّ كنّ يثرنَ كلما رأينهُ او سمعنَ اسمهُ فحاكمهُ الكردينال رشليه وحكم عليهِ بالشنق والحرق . وامتدّ الداء في جنوبي فرنسا وغربيها واصيب بهِ كثيرون من الرجال والنساء

وبعد سنين قليلة انتشر داء مثلهُ بين المغنوط فقالوا انهُ روح الهيّ حلّ فيهم وقال اعداؤهم انهُ روح شيطاني حتّى قال المرشال ده ڤيلرس الذي ارسلتهُ الحكومة لعقابهم انهُ رأى مدينة نساءها وبناتها كلهنّ بدون استثناء مسكونات من الشيطان وهنّ يثبنَ ويصرخنَ في الاسواق

وفي اواخر ذلك القرن ظهر هذا الداء في اميركا فان فتاتين اصيبتا بالمستيريا فادّعتا ان امرأةً من هنود اميركا سحرتهما فدُعيت المرأة وزوجها للمحاكمة ولما شددوا عليها التعذيب اعترفت باشتراكها مع الشيطان فهاجت خواطر الناس بسبب هذه الحادثة وللحال امتدّ المرض بين النساء والبنات وجعلنَ يتّهمنَ العجائز بسحرهنّ ثم تطرقنَ الى اتهام غيرهنّ من كبار القوم فحكم على كثير منهم بالموت . وكلما تجاسر احد على ان يرتاب في صحة تلك الاعمال الشيطانية كان يتّهم بالاشتراك مع الشيطان ويُحكَم عليهِ بالقتل حالاً . وكثيرًا ما كان يُحكَم على الشخص ويُقتَل لاقل علة ولو كانت وهميّة فقد ادُّعي على امرأة انها اعطت كتابًا لشخص آخر وحالما اخذهُ الى بيتهِ دخل الشيطان البيت ومزق ورقة من الكتاب فحكم عليها بالقتل وقتلت شنقًا . وقُتِل كثيرون على هذا النمط وقاتلوهم يحسبون انهم يخدمون الله ويعملون بارادتهِ . ولكن اذا تمّ شيءٌ بدا نقصهُ فلما بلغ الجهل اشدّهُ والحماقة اقصاها تنبهت بعض العقول من

سمائها ورأت قبح ما يفعله الآخذون بناصر الهستيريات القائلون عباد الله اعتمادًا على دعواهنّ . ولم يكن الاّ زمن قصير حتّى انجلت سُحُب الاوهام عن سماء الحقيقة

وبعد اربعين سنة من ذلك العهد عادت الاوهام فضربت اطنابها في بلاد فرنسا وذلك ان احد خدمة الدين الفضلاء مات ودُفن في مدينة باريس سنة ١٧٢٧ . وقيل انهُ ظهرت كرامات من قبرهِ فنسب ذلك انصارهُ الجنسيون الى قوة الهيّة ونسبهُ خصومهُ الجزويت الى قوة شيطانيّة . ثم زاد تأثُّر الناس من زيارة قبره وصار النساء يُصبْنَ بالصرع الهستيري حتّى اضطرّت الحكومة الفرنسويّة الى اقفال ابواب المقبرة ومنع الناس من رؤية القبر فامتنع ما كان يحدث من المعجزات الالهيّة على قول البعض او الشيطانيّة على قول البعض الآخر وكتب احد الفرنسويين بيتًا على باب القبر يقول فيهِ

عَجَلَ العجائبِ من ضريحِ وليّهِ امرَ المليكُ ليُبطِلَنّ الله

ولكن ثورة الخواطر لم تهجع في فرنسا الاّ رويدًا رويدًا . وما هجعت فيها حتّى ظهرت في جرمانيا سنة ١٧٤٩ ثم عادت الى فرنسا سنة ١٧٨٠ فانهُ بينما كان جمهور من البنات في احدى الكنائس يسمعنَ الوعظ والارشاد اصاب واحدة منهنّ نوبة هستيريّة وامتدّ الداء حالاً بين رفيقاتها الى ان بلغ عدد المصابات خمسين او ستين وظهر شيءٌ من ذلك في بلاد وايلس بانكلترا سنة ١٧٦٠ فانهُ بينما كان جمهور من الناس يسمع الخدمة الدينيّة اخذوا يثبون من الفرح وامتدّ ذلك بينهم حتّى صار منهم طائفة تسمى طائفة الواثبين

وفي اواخر القرن الثامن عشر ثبت ان هذه الحوادث لا يقتصر حدوثها على التأثر الديني بل قد تحدث لاسباب اخرى ففي سنة ١٧٨٧ كان جمهور من البنات يعملن في معمل قطن ببلاد الانكليز وكانت واحدة منهنّ تكره النيران وتخاف منها فامسكت احدى رفيقاتها قارة ووضعتها في جيبها فجفلت الفتاة من ذلك واصابتها نوبة تشنجيّة دامت اربعًا وعشرين ساعة وبعد قليل أُصيب ثلاث من رفيقاتها بمثل ما أُصيبت بهِ ثم ستّ وامتدّ الداء حتّى عمّ البنات كلهنّ وبلغ الخبر معملاً آخر على خمسة اميال من الاول فاصيب بناتهُ بالداء نفسهِ وكنّ يتشنجنَ ويرقصنَ ويتنفنَ شعورهنّ ويضربنَ رؤوسهنّ بالحائط فاقبل الاطباء وعالجوهنّ بالكهربائيّة فالهوهنّ وشفوهنّ

وسنة ١٨٠١ اصيبت فتاة بتشنجات شديدة في مستشفى الرحمة ببرلين وللحال انتشر الداء بين رفيقاتها فعولجنَ بالافيون وشفين . وسنة ١٨٥١ كان ستون امرأة يعملنَ في احد المعامل فاختصمت امرأة مع زوجها وأُغمي عليها واصيبت بالتشنج فاجتمع النساء حولها

ليساعدنها فاصابهنّ ما اصابها وأُغمي على عشرين منهنّ

ولم تزل هذه الحوادث تتكرر والمباحث العلميّة تزيد تدقيقًا الى ان ثبت ان الهستيريا والصرع والخوريا وما اشبه امراض عصبيّة طبيعيّة وعند لها الاطباء فصولاً خاصّة في كتبهم وابانوا انها قد تحدث بالقدوة والانتظار وبكل ما يثير الانفعالات النفسانيّة . واشدُّ الناس تمسُّكًا بالعقائد الدينيّة اذا اصيبت اخته او زوجته الآن بالخوريا او بالهستيريا او بالصرع استدعى لها الطبيب حالاً ليعالجها بحسب صناعته . والّذين كانوا يجنون منذ مئة سنة بان هذه الادواء روحيّة وعلاجها روحي صاروا الآن ينشئون مدارس الطب وينشرون كتب الاطباء القائلة انها امراض طبيعيّة وعلاجها طبيعي . وقد فاز الاطباء بذلك فوزهم في مسئلة المجنون وعاد الناس الى اقوال اطباء اليونان والعرب

نساء الهند

جال في ميدان التحرير والانتقاد في هذه الاثناء كاتبتان بليغتان الأولى عثمانيّة كتبت من الاستانة العليّة الى جريدة القرن التاسع عشر الانكليزيّة تشكو من حال المرأة العثمانيّة وتتظلّم من جور الرجال وتفضيلهم للشركسيات على العثمانيات وتندّد بالكتب الافرنسيّة الّتي وُضعت بين ايدي بنات الاستانة فحبّبت اليهنّ رفع الحجاب وزادت مرارة عيشهنّ مرارةً . والثانية انكليزيّة وهي المركيزة دفرن زوجة اللورد دفرن حاكم الهند كتبت الى جريدة القرن التاسع عشر ايضًا تصف احوال النساء في بلاد الهند وتنفي ما هو شائع عنهنّ وهو انهنّ عائشات عيشة الفهر في خدورهنّ كالطيور في الاقفاص او كالمجرمين في السجون لا يرين الشمس ولا جمال الطبيعة . وتثبت انهنّ راضيات بعيشتهنّ اكثر من نساء المغرب . ولما كان ما كتبته يصدق على كثيرات من نساء هذه البلاد رأينا ان نلخصه ليرى نساؤنا احوال اخواتهنّ في اقصى المشرق وما ترتاح به في امرهنّ واحدة من فضليات نساء المغرب

قالت ان بلاد الهند واسعة الاطراف بعيدة الاكناف واحوال اهاليها وعوائدهم متباينة فما يصدق على بعضهم لا يصدق على البعض الآخر ولذلك لا يمكن ان يطلق عليهم كلهم حكم واحد ولكني اقول بوجهٍ عام ان الوصف الشائع عندنا لنساء الهند وهو انهنّ إمّا زوجات منهمات او ارامل مقهورات او اسيرات مسجونات حيث لا يرين وجه انسان غير